

## علوم الإعلام والاتصال: "من التفكير بالمنهج

### إلى التفكير في المنهجيات"

نصرالدين لعياضي\*

"إن المنهجية دون ابستمولوجيا ليست سوى خراب الفكر"

Marie-José Avenie

مديرة البحث في المركز الوطني

للبحث العلمي بفرنسا.

### مقدمة

حاول بعض الباحثين تشخيص الصعوبات التي يعاني منها البحث العلمي في علوم الاتصال والإعلام في المنطقة العربية في عدم التحكم في المناهج المنتجة للمعرفة (لوتاه، 2005)، ويرى البعض الآخر أن كل العلوم الاجتماعية والإنسانية في المنطقة العربية تعاني من الصعوبات ذاتها.

فترتب عنها أنّ بعض البحوث ظلّت تعاني من قصور وخلل معرفي<sup>1</sup>. يؤكد الفيلسوف المغربي بوعزة (2005) في هذا الصدد، على أنّه "عندما

\* أستاذ التعليم العالي بكلية علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر 3.

<sup>1</sup> للتأكيد على هذا التخطئ في مجال علوم الإعلام والاتصال نورد ما ذكرته الباحثة نهود القادري عيسى في تحليلها لعينة من البحوث عن المرأة والإعلام حيث بينت كيف أن بعضها يعاني من خلل وعدم اتساق بين

يشتغل الوعي بقواعد منهجية ما، فإنّه ينساق في الغالب إلى أن يُفكر بها لا أن يفكر فيها (...) فأَي منهج (...) يرسم إطاراً مُسَيَّجاً لفعل الفكر ي، يحدّ من طلاقة النظر ومسافة الرؤية". وحتى لا نقفز إلى الاستنتاج المتسرعّ وندعو إلى ضرورة التخلّي عن المنهج من أجل النهوض بالبحث العلمي في علوم الإعلام والاتصال، ونجاري بهذا الطرح الذي يروم تقويض فكرة المنهج العلمي، يمكن التنبيه إلى أن الكثير من بحوث علوم الإعلام والاتصال في المنطقة العربية تعاني من خلل في المنهج، أيضاً، بمعنى أن المناهج التي توظفها لدراسة ظواهر الإعلام والاتصال أخفقت في تنظيم عملية التفكير (لعياضي، 2016). وهذا يقودنا إلى المطالبة بضرورة الانتقال من التفكير في المنهج إلى التفكير في منهجية علوم الإعلام والاتصال. ولتوضيح الفرق بينهما يمكن القول أن المناهج هي جملة الإجراءات والتقنيات التي نشغلها لجمع البيانات وتحليلها، بينما المنهجية هي طرائق التفكير لدراسة الظواهر والواقع الاجتماعي (Strauss & Corbin, 2004, p. 16).

يمكن القول أن دراسة الإعلام والاتصال أطّرتها ولازالت تؤطّرها منهجيتان: الكميّة والكيفيّة، والاختلاف بينهما ليس تقنياً، بل ابستمولوجياً. وقد ظلّ هذا الاختلاف مغيباً في النقاش حول البحث في علوم الإعلام والاتصال في المنطقة العربية أمام كثرة الحديث عن المناهج وقلة التفكير في المنهجية. ويبدو اليوم أنّ هناك ضرورة ملحة لطرحه وتعميقه في ظل التطوّر الحاصل في قطاع الإعلام والاتصال ووسائل الاتصال التي انتجت منظومة يتداخل فيها الاتصال الشخصي والجماعي والجماهيري، أو ما أصبح يعرف بـ "الميديا الشخصي الجماهيري" Self mass media.

---

بدايته ونهايته !أنظر: نهوند القادري عيسى (إعداد): قراءة تحليلية في عينة من بحوث المرأة والإعلام، برنامج تمكين المرأة، مؤسسة الحريري، البنك الدولي، 2008، ص 90.

## أولاً: البحث الكمي والبحث الكيفي: الأسس الفلسفية والمنطلقات النظرية

إن المعالجة الأولية لـ "بحوث" الإعلام والاتصال في المنطقة العربية، بصرف النظر عن الأطر التي برزت فيها، تكشف عن هيمنة البحوث الكمية<sup>1</sup>، وغياب يكاد يكون تاماً للبحوث الكيفية، وندرة البحوث التي تزوج الكم والنوع في آن واحد. ولتفسير الهيمنة المذكورة يمكن أن نقدّم العناصر التالية للتفكير:

(1) لزال تدريس منهجية البحث في الكثير من الجامعات العربية يستبعد، مع الأسف، البحث الكيفي. كما أن الكثير من كتب المنهجية الخاصة بعلوم الإعلام والاتصال والصادرة باللغة العربية تتجنب الحديث عنه.

(2) لقد وجد الاتجاه الوضعي المهيمن في البحوث العلمية الإعلامية في المنطقة العربية مشروعيتها في ظل استشراف "براديغمات" Paradigms الحتميات: الحتمية التكنولوجية أو الحتمية الاجتماعية، التي تنطلق من حقائق وتفسيرات جاهزة لا تحتاج سوى إلى البحوث الكمية قصد قياس وجودها وتحديد حجمها ونسبتها فقط.

---

<sup>1</sup> - يمكن الإشارة على سبيل المثال وليس الحصر أنه من بين 34 بحث وورقة بحثية التي عرضت في مؤتمر الإعلام العربي وأسئلة التغيير في زمن التحولات الذي عقدته كلية الإعلام والتوثيق بالجامعة اللبنانية من 7-5 مايو 2016 لم يقدم سوى بحث كيفي واحد. ولم يوجد سوى بحث واحد من ضمن 20 بحث المقدم إلى الندوة العلمية حول ثقافة الانترنت وأثرها على الشباب، التي نظمتها جامعة الشارقة بالتعاون مع المنتدى الاسلامي، ودائرة الثقافة والإعلام، والتي عقدت بالشارقة في أبريل 2006 استخدم المنهج الإثنوغرافي في دراسة لغة حجات الدردشة. ويتكرر هذا الموضوع في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية حول علوم الإعلام والاتصال.

(3) إن الطلب الاجتماعي على بحوث الإعلام والاتصال في المنطقة العربية ما زال متواضعا، ومرتها لمنطقي السوق والأيدولوجيا. فإذا اعتبرنا السوق قوة "ناشئة" في المنطقة العربية تحرك الاستهلاك الإعلامي والثقافي، فإنها تحتاج إلى الدراسات الكمية التي تتعامل مع حاجيات الجمهور كمعطى كمي. فالمنافسة بين الفضائيات التلفزيونية للوصول إلى أكبر عدد من الجمهور لتمويلها مباشرة من مكالمات "الجمهور/الزبون عبر الهاتف، أو للاستحواذ على أكبر حصة من الإعلانات أو الاثنين معا. وبهذا أصبحت تعاني ما تعانيه القنوات التلفزيونية التجارية في الدول الغربية، التي جعلت الحكم على مستقبل برامجها التلفزيونية في يد جهاز قياس المشاهدة التلفزيونية. إنَّ حُجَى رفع عدد المشاهدين قدّست الكم، وجعلت منه دليلا على النوعية! فمعرفة الكم وإحصاؤه لا تحتاج إلى مقاربات نوعية. أما القنوات التلفزيونية التي توطرها الدعاية السياسية فإنها لا تحتاج هي الأخرى للبحوث النوعية لأنها تروم بث دعايتها في وسط الحشد، والانتشار الواسع وسط أكبر عدد من الناس.

(4) لازالت المنهجية الكيفية تعاني من الاستصغار في الأوساط الجامعية العربية للأحكام التي تصدر في حقها، مثل عدم علميتها واقترابها من "الحس المشترك" *sens commun*، وهشاشة أدواتها البحثية، وذاتيتها وانطباعاتها وإنشائيتها، ومعاداتها للإحصائيات، ورفضها للقياس والتجريب. إن هذه الأحكام لم تختف نهائيا في بعض جامعات الدول الغربية، بما فيها تلك التي تعيش عنفوان العودة لاستخدام البحث الكيفي في العلوم الاجتماعية،<sup>1</sup>

<sup>1</sup> للدلالة على هذه العودة يمكن الإشارة إلى تأسيس جمعية الدراسات النوعية من قبل الأساتذة والباحثين الكنديين في السنة 1995.

رغم أن الكثير منها فصل فيها النقاش العملي، وتجاوزتها الممارسة البحثية كما نبين لاحقا.

من أجل الانتقال من التفكير بالمنهج إلى التفكير في المنهجية، وقبل استجلاء التموّج الاستمولوجي للبحوث الكمية والنوعية، نرى ضرورة التوقّف عند تعريف هذه الأخيرة لتبيد ما نراه من سوء فهم اكتنفها، والذي على أساسها انبنت بعض الأحكام المذكورة أعلاه.

يقصد بالمنهجية الكيفية مختلف طرائق التأويل التي يمكن استخدامها من أجل وصف وترجمة الظواهر الاجتماعية، والتي تسمح بالاهتمام بدلالة الظواهر أكثر من توتراتها. (Van Manen, 1990, p. 75)

وتعرّف المقاربة الكيفية بأنها التحليل الذي يعيّن طبيعة العناصر التي تحدّد جسم ما، دون الأخذ بعين الاعتبار حجمها أو كميتها (Dumez, 2011). أي أنّها لا تعالج البيانات التي يصعب تكميمها، ولا تولي الأهمية ذاتها للإحصائيات التي توليها لها البحوث الكمية. وتهتم أكثر بالفعل والفاعل، والمعنى مما يُقال والسلوكيات والممارسات.

يبدو القول إن البحث الكيفي يسمح بالإحاطة الشاملة بالظواهر ويغوص في عمق تحليل المعطيات الاجتماعية، وأن البحث الكيفي يعدّ شكلا من التدقيق في سطح الحقائق الاجتماعية (Pires, 1982, p.19) غير دقيق وغير كاف، وذلك لأن إدراك ماهية البحث الكيفي، الذي يسعى، أيضا، البحث الصّلب أو الثقيل HardMethodology، والبحث النوعي الذي يُكتّى بالبحث الخفيف SoftMethodology يقتضي الاقتراب من إطارهما الفلسفي، وتموقعهما الاستمولوجي واستراتيجتهما.

يرى (Dumez, 2011) أن التعارض بين الكمّ والكيف يعود إلى نظام الفئات الأرسطي، الذي يعرّف نوعية الشيء بأنه ما يجعل هذا الشيء على ما هو عليه، وليس ما هي عليه الأشياء الأخرى. أمّا الكمية فتعني بعدد الأشياء.

تنطلق البحوث الكمية من "البراديجم" Paradigm الوضعي الذي يرى أن الحقيقة الاجتماعية لا توجد سوى في حالتها الملموسة والمستقلة عن كل رأي أو موقف، وتنتظر أن تُستطلع وتُكتشف. ويُنظر إليها على أساس أنها ذات بُنية مغلقة تتشكل من عناصر قابلة للقياس (Mucchielli, 2014). فتبدو العلاقات فيها كأنها آلية وحتمية في آن واحد لظاهرة تمّ عزلها، واستبعدت من كل ما يحيط بها (Barbier, 1990, p. 14).

تلبى البحوث الكيفية متطلّبات "براديجم" Paradigm البنائية الاجتماعية الذي يسمح ببناء سياقات لوصف الظواهر وفهمها. فالبنائية الاجتماعية لا ترى الظواهر الاجتماعية والثقافية في وضعها المنجز؛ وصيغتها النهائية، بل تراها في طور البناء والتشكّل. فالناس يصنعون واقعهم الاجتماعي انطلاقاً من تفاعل بعضهم البعض، من جهة، وبينهم وبين واقعهم، من جهة ثانية. فإدراك هذا الواقع لا يتم بدون وجهات نظر الأشخاص الفاعلين، لذا لا بد من استجلاء تأويلهم لأوضاعهم وللظواهر الاجتماعية.

إذا، تركّز المقاربة الكيفية على الفاعلين في الظواهر وليس المتغيرات، أي خلافاً للمقاربة الكمية التي تهتم بالمتغيرات ولا يظهر الفاعلون إلا عندما تعجز المتغيرات عن تفسير الظاهرة (Dumez, 2011).

إن الحقيقة العلمية التي تؤمن بها البحوث الكمية، لا وجود لها، في نظر البنائية الاجتماعية، حيث تعتبرها ضرباً من الوهم (Berner, 1997, p. 89) لأنّ هذه الأخيرة لا تسلّم بالحقيقة الجاهزة، بل تؤمن بالتأويل كمفتاح

للفهم. فالتأويل يُعدّ في آخر المطاف، نتيجة للتوافق بين التجربة الماضية وبنية التفكير، أي التجربة الحاضرة (Martine, 2009).

ويعتقد أتباع النظرية البنائية أن المعرفة ليست فعلا صرفا يشترط التأمل في موضوع البحث، بل يعتبرونها ثمرة التفاعل بين موضوع المعرفة، والذات العارفة (Muchielli, 2014).

ويرى (Mucchielli 2014) إن المنهجية الكيفية تستعين بالبنائية سواء لبناء " السياقات العلمية" لتحليل الظواهر المدروسة، أو لوصف مسار التأويل الضروري من أجل فهم الظواهر الاجتماعية من داخل السياق المبني، وتصوغ، في آخر المطاف، "الدلالات" في شكل شرائح يمكن ربطها بالظواهر المدروسة.

إذا، إنّ التباين في النظرة إلى الظواهر الاجتماعية، لا يلخص كل الفروق القائمة بين البحوث الكمية والنوعية، إذ أنها تمتد إلى تمثّل المعرفة وسبل الوصول إليها وأدوات تجسيدها، والتي لخصها ( Massé & Vallé, 1992, pp. 37-38) في العناصر التالية: الموضوعية، وأدوات البحث والقياس، وغائية البحث، والعلاقة بين القيم والأحداث.

إن غاية البحوث الكمية هي المعرفة عبر شرح الظواهر وتفسيرها واستجلاء القوانين التي تسمح بالتنبؤ بوقوعها. ويتم تعميمها بصرف النظر عن المكان والزمان الذي تُطبق فيها. بينما البحوث الكيفية تستكثر هذا الهدف لأنها ترى أن المعرفة مفهوم نسبي وإشكالي، وتكتفي بالتأكيد على أنّ غاية البحث تكمن في إدراك كيفية المعرفة، وليس بلوغ المعرفة ذاتها؛ بمعنى أنها تسعى إلى فهم الظواهر واستعراض أشكال استيعابها عبر عملية التأويل التي تحدثنا عنها أعلاه.

إستطاع النموذج الوضعي في العلوم الاجتماعية أن يرسّخ تصوّرا لموضوعية المعرفة، يستند إلى المعطيات الإحصائية، فجعلها حكرا على البحوث الكمية، فصرامة المعالجة الكمية للبيانات والمعطيات في نظره تمنحها طابعا "موضوعيا"، وتجعلها في منأى عن التلاعب، وبعيدة عن ذاتية الباحث.

لقد بُني هذا التصوّر على فكرة أنّ الباحث في العلوم الاجتماعية يجب أن يحافظ على هامش يفصله عن موضوع بحثه، ولا يغمس في الأوضاع الملاحظة التي لا تمثل له أي أهمية. فموضوع البحث من هذا المنظور، ليس مسرحا لأنشطة الباحث، بل يظلّ مجالا لملاحظاته فقط.

### ثانيا: مسألة الموضوعية في البحث الكمي والبحث الكيفي.

تأسيسا على التصوّر السابق يمكن القول إن مسألة الموضوعية تتوقف على مكانة الباحث وموقعه بالنسبة لموضوع البحث، أو نظرت له. فإذا كانت نظرت من داخل الظاهرة أو موضوع البحث، كما تفعل المناهج الكيفية فإنّها تنتج أحكاما ذاتية، وإذا كانت من خارج موضوع البحث، كما تفعل البحوث الكمية، فإنّها تؤدي إلى نتائج موضوعية؛ أي أنّها تتصوّر الموضوع المدروس، أو الظاهرة كأنّها مستقلة استقلالاً كلياً عن شروط ملاحظتها (Barbier, 1990, p. 14). وهذا يتناقض مع المقولة الكانطية التي ترى "إنّنا لا نجد في الأشياء إلّا ما سبق أن وضعناه فيها". فالبحث عن الظاهرة الاتصالية من داخلها أو ما أصبح يعرف "بالتجربة المعيشة"، تحوّلت إلى مفهوم مركزي في الكثير من البحوث التي ارتبطت "بالميديا الجديدة" وترتكز بدرجة أساسية على أطروحة هبرماس "العقل التواصلي" الذي يتسم بطابع ما بين الذاتيات (Habermas, 1987, p. 45).

يرى Anadón و (Guillemette 2007) أن الإنتاج المعرفي ممكن وفق شروط ثلاثة، وهي: 1- تثمين الذاتية كفضاء لبناء الواقع الإنساني، 2- المطالبة بالأخذ عين الاعتبار الحياة اليومية التي تسمح بفهم الواقع الاجتماعي والثقافي، 3- المابين الذاتيات والتوافق كإستراتيجية من أجل النفاذ إلى معرفة الواقع الإنساني.

يمكن أن نقرب من تجسيد فكرة موضوعية البحث في الصيغة اللغوية التي تستخدمها البحوث في مجال الإعلام والاتصال. فالموضوعية تقتضي من الباحث الكمي عدم استخدام ضمير المتكلم في بحثه، بل تلزمه الاختباء وراء مسمى الباحث، كالقول إن الباحث سعى إلى كذا أو قام بكذا أو يهدف إلى... لأنه يعتقد أن ضمير المتكلم مشبع بالذاتية، بينما يرى الباحث الكيفي عكس ذلك، إذ يقدّر أنّ استخدام هذا الضمير في البحوث الكيفية، برهان على شفافية البحث ونوعا من مصارحة القارئ؟ ألا يوحي استخدام هذا الضمير بأن النتائج التي توصل إليها البحث، هي عملية تأويلية لمعطيات قام بها الباحث الفلاني في السياق الفلاني، وأنها لا تدعي امتلاك الحقيقة العلمية المطلقة؛ أي أنها لا تضللّ القارئ بصيغ تعبيرية توحى بالموضوعية التي هي مثار جدل وسجال في البحوث الاجتماعية.

يطلق على البحث الكيفي صفة تعاطفي، لأنه يتعاطف مع المبحوثين، بمعنى أن الباحث لا يتعالى على المبحوثين ولا ينطلق من تصوّر جاهز عنهم وعما يفعلون، بل يتنازل عن موقعه ويلتحق بهم، ويشاطرهم ظروفهم وأوضاعهم، ليدرك قيمهم وتمثلاتهم والدلالات التي يمنحونها لحياتهم الاجتماعية انطلاقا من قناعاتهم ومرجعياتهم الثقافية.

يُعتقد أن مصطلح " تعاطفي " مشحون بالذاتية التي تبعد البحث عن كل موضوعية. لكن الإقرار بهذا الأمر يحمل نوعا من المصارحة والمجاهرة التي تؤكد على شفافية الأسلوب ونسبية النتائج، التي يمكن أن يصل إليها البحث الكيفي. فإذا كانت هذه الشفافية لا تلغي وجود هامش من الذاتية فإنها، على الأقل، ليست مُضلّلة. فالبعض يعتقد أن القول بأن الظروف ذاتها تؤدي إلى النتائج ذاتها، الذي تتكى عليه البحوث الكمية، يحمل قدرا من التضليل. فالظروف في الحياة الاجتماعية لا تتكرر بالصيغة ذاتها، والتفاصيل عينا. إنها تتبدّل وتتغيّر، بهذا القدر أو ذاك. وجهل هذه الحقيقة أو تجاهلها ترتب عنه نتائج أفتح من ثقل التعاطف مع موضوع البحث والمبجوثين.

لا يؤخذ على البحوث الكيفية التي أجريت في مجال علوم الإعلام والاتصال في المنطقة العربية، على قلتها نزعتها " التعاطفية " فقط، بل انطباعاتها التي تجعل نتائجها عبارة عن تحصيل حاصل أو ترسيخ «الحس المشترك» ولا يعمل على الارتقاء بهذه الانطباعات والانطلاق منها نحو عمق الظاهرة المدروسة. فهذه البحوث لا تسير في طريق معبّد معرّزة بخارطة طريق البحث وعدّته قبل انطلاق البحث، كما هو الشأن في البحوث الكمية المستلهمة من التوجه الوضعي. فتحليل المحتوى الكمي أيسر من دراسة التفاعلات الاجتماعية أثناء المشاهدة الجماعية للبرامج التلفزيونية، أو التي تجرى عبر مواقع الشبكات الاجتماعية الرقمية. إن البحوث الكيفية تتضمن هامشا من الارتجال والابتكار، وأسلوب لّين في جمع البيانات ومنطقا استقرائيا غير مؤسّس على فرضيات ثابتة ونهائية، ممّا يمنح الحرية للباحث في تغيير إستراتيجية بحثه وإثراء أدواته.

رغم أن الكثير من الباحثين اقتنعوا بأن الموضوعية ليست مرادفا للحياد (Pires, 2009)، لأن المصلحة توجّه المعرفة العلمية التي يعبر عنها

الشخص الذي ينتجها، أو تنشدها المؤسسة المكلفة بالبحث. هذا ما عبّر عنه الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو Michel Foucault (نقلا عن Attallah, 1991، 17) في تعريفه للنظرية، إذ اعتبرها استراتيجية تدخّل. فلم ير المعرفة من زاوية مدى موضوعيتها وطابعها الكوني، بل في ظل سياق القوى والمصالح الاجتماعية التي تحركها، وربطها بالسلطة (Attallah, 1991, p. 17).

إن المنهجية الكيفية لا تعتبر، من منظور Anadón و Guillemette (2007)، الحقائق الذاتية وما بين الذاتيات كمواضيع المعرفة العلمية فحسب، بل تعدّها أيضا أدوات بحث. إذ تميّز بين "الواقع الأمبريقي" من جهة، ومعرفة هذا الواقع، من جهة أخرى، والذي تسميه "الواقع الاستمولوجي" والذي يمكن النفاذ من خلاله إلى الواقع الأمبريقي. فإذا كان هذا الأخير يستطيع أن يملك وجودا مستقلا عن الباحث الذي يعرفه، فلا وجود للواقع الاستمولوجي دون الباحث غير المستقل عن الثقافة والعلاقات الاجتماعية. وبهذا، يكون الواقع الاستمولوجي مرهونا لشروط إنتاجه، وسياقاته التاريخية والاجتماعية والثقافية والسياسية. وهذا ما يعبر عنه الفيلسوف الألماني (Hans-Robert Jauss نقلا عن Kalinowski, 1997) بأفق الانتظار الاجتماعي والتاريخي للباحث، والذي تلخّصه الفكرة التي مفادها أن للباحث أفق اجتماعي وتاريخي يتواجد فيه ومن خلاله، يملّي عليه قراءة البيانات التي يجمعها، والمعارف التي يتعامل معها.. وإن كان الفيلسوف Hans-George Gadamer شغل مفهوم الأفق التاريخي ضمن مسعاه إلى تدشين نمط جديد من التأويلية يحل محل المنهج، ويسدّ الثغرات التي يخلفها استخدامه، على حدّ تعبير مترجم كتابه المرجعي: الحقيقة والمنهج، (هانز جورج قادمير، 2007، ص 14) فإن المنهجية الكيفية لا تنفي ضرورة المنهج، وإن كانت تصوّره في صيغة تعدّدية، مما يثير مسألة الموضوعية ضمن رؤية فكرية

أعمق تتجاوز البعد الإجرائي. فالبنائيون الاجتماعيون يعتقدون أن ما هو موضوعي يتناسب مع ما تنفق على اعتباره أنه كذلك في سياق معين (Massé & Vallé, 1992, p. 35)؛ فAndrezws (2012) يرى أن التعمد يصبح جزءا من الروتين، ويؤدي إلى تشكيل مخازن عامة للمعرفة. ومأسسة هذه المعرفة في المجتمع تؤدي بالأجيال المستقبلية إلى التعامل معها كمعرفة "موضوعية"، فتثبت أكثر، وتترسخ بشكل متواصل عبر تفاعلات الأفراد مع بعضهم.

تدلّ الموضوعية في المنهج الكمي على إمكانية الوصول إلى النتائج ذاتها إذا أعيد استخدام أدوات القياس عينها في البحث وبالطريقة ذاتها. فالموضوعية في هذه الحالة تكون وليدة أداة القياس. إذا، تعتبر أدوات البحث العلمي الحاكم الفصيل على موضوعية البحث أو ذاتيته. هذا على الرغم من أن تاريخ العلوم الاجتماعية يؤكّد صعوبة تطبيق معايير القياس والدقة المألوفة في العلوم الدقيقة على العلوم الاجتماعية.

### ثالثا: حدود الاستبانة في قياس الظواهر الاتصالية والإعلامية

لقد رسخت البحوث الاجتماعية، خاصة في علوم الإعلام والاتصال، فهما محددا لأدوات القياس يؤكد استقلاليتها عما يجب أن تقيسه، مما يمنحها الدقة والعلمية.

لقد انتقد العديد من الباحثين هذا الفهم معتبرين أن أدوات القياس ليست محايدة، وأكد بعض علماء الاجتماع، مثل Bourdieu. (Chamboredon. Passeron, 1983, p. 53) أن حيادها خاطئ فمن الممكن ألا تعبر عن "الواقع الأمبريقي"، بل تعبر عن تصورها لهذا الواقع. فإذا كان البعض يُعدّ الاستبانة، أو عملية سبر الآراء، تقنية محايدة لا تقوم سوى

بالتعبير عن الرأي العام، فإن البعض الآخر يرى عكس ذلك، إذ يعتبر أنهما ينتجان رأيا عاما غير موجود في الواقع الأمبريقي (Bourdieu, 1973).

إن نقد البحوث الميدانية في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية التي تعتمد على الاستبانة كأداة بحث، يركز على محورين أساسيين، وهما: الاعتماد على عينة لا تمثل مجتمع البحث ولا تعكس عدم تجانسه، وطبيعة الأسئلة التي تتضمنها، والتي قد تنقد لكونها موجهة أو لاستبعاد طرح بعض الأسئلة. الاستبعاد الذي يصعب إدراجه كله في خانة السهو أو النسيان، لأن بعضه ينتهي إلى خانة المسكوت عنه أو غير المفكر فيه الذي يحيد عن الأنماط الاجتماعية المعيارية التي اكتسبت قوة المرجعية الاجتماعية والسياسية والثقافية والأخلاقية.

إن الاكتفاء بالاستبانة في البحوث الكمية يثير الكثير من الإشكاليات لأنها تعتمد على اللسان فقط. فرغم أهمية هذا الأخير في عملية التواصل إلا أنه يعجز عن قول كل ما يريد قوله. ولا يكتفي بملفوظاته أو بما يُثبت منه خطيا، كما بين ذلك الفيلسوف الألماني غادامر (Gadamer) نقلا عن Zine, (2009). هذا إضافة إلى أنه يجعل من الخطاب المنفذ الوحيد إلى ولوج الواقع الأمبريقي الذي من الممكن ألا يكشف عنه بقدر ما يتستر عليه. فالخطاب يعبر أولا عن واقعه.

وأعتقد أن الاعتماد على الخطاب السياسي الرسمي في المنطقة العربية، كمنفذ وحيد، لفهم الواقع الأمبريقي قد يؤدي إلى تضليل الباحث، ليس لأن هذا الخطاب يتغنى بما يجب أن يكون عليه الواقع، بل لأنه ينتج "واقعه"؛ أي الواقع الأمبريقي كما يتمثله.

يعتقد أن الاستبانة لا تملك القدرة على النفاذ إلى ما يفكر فيه المبحوثون أو المستجوبون أو ما يشعرون به في المجتمعات الذي تحول دون الحصول على معلومات صادقة وكاملة ودقيقة من المبحوثين، حتى وإن افترضنا انفصالها عن الذات الباحثة وموضوع البحث. فإجابة هؤلاء على بعض الأسئلة التي تتضمنها الاستبانة تكون مشروطة مسبقا بحالة الريبة أو الخوف من سيف الحجاج أو طمعا في ذهب المعز، كما يُقال. والمبحوثون، الذين يجيبون على بعض أسئلة الاستبانة دون خوف من أن تصل آراؤهم ومواقفهم إلى السلطات العمومية أو الجماعات الضاغطة، يمارسون الرقابة الذاتية على ما يدلون به من إجابة نتيجة الإكراه الذي تمارسه الثقافة السائدة. فيتهربون من الإجابة الدقيقة بتقديم عبارات عامة تتماشى مع الآراء السائدة والمهيمنة. (بوخنوفة، 2004). ومن الممكن ألا يكون لهذه الرقابة سببا سوى العرف الاجتماعي والعادات والتقاليد الراسخة في المجتمع. فمن الممكن أن يكون عامل السن، على سبيل المثال، مؤثرا في دراسة علاقة الإناث بتكنولوجيات الاتصال المعاصرة لأن الكثير منهن تحجم عن ذكر سنهن.<sup>1</sup> إن استخدام الاستبانة يتطلب وجود شفافية المعلومات في المجتمع، وحرية تداولها، وتأويلها. فما مدى مصداقيتها إن غابت هذه الشفافية؟

إن مراجعة الكثير من "البحوث" عن الرأي العام في المنطق العربية تثبت أنها تنطلق من تصورات الباحثين لهذا الرأي الذين يرونه قائما وفاعلا في المجتمعات العربية، ولا يحتاج سوى إلى أداة قياسه (أي الاستبانة) دون أن تتسأل عن السياق الذي يتشكل فيه هذا الرأي كما تتمثله، وأطر تعميمه.

<sup>1</sup> قام أحد الباحثين الشباب بانجاز بحث بعنوان: المدرسة، التلميذ والمعلم، وتكنولوجيات الاتصال الحديثة: دراسة في التمثل والاستخدامات، لنيل شهادة دكتوراه دولة في علوم الإعلام والاتصال، وفي أثناء المناقشة وجه له أحد أعضاء لجنة المناقشة السؤال التالي: لماذا أغفلت عامل السن الذي أراه متغيرا أساسيا في هذا البحث، فكان الجواب ببساطة أن المعلومات رفضن ذكر سنهن

فهل بالإمكان الحديث عن رأي عام دون الحديث عن الفضاء العمومي الذي يتبلور فيه؟ لعلّ هذه الأسئلة تبين، إلى حد ما، أن أداة القياس سعت إلى إنتاج رأي عام لم يكن موجودا في المجتمع، أو أن وجوده لم يكن، على الأقل، بالصورة التي تختزلها فيها الإحصائيات وتجرده من طبعه المركب والمعقد والمتلون. ويسعى بعض هذه البحوث إلى تحليل مضمون الصحف ووسائل الإعلام، ليستنتج من خلال هذا التحليل عملية تشكيل الرأي العام! إنه إستنتاج نظرية الإبرة تحت الجلد أو التأثير القوى والموحد لوسائل الإعلام.

وحتى أن توجيه الأسئلة للجمهور عبر الاستبانة للكشف عن علاقة مضمون وسائل الإعلام في تشكيل الرأي ضمن المقاربة التي جاءت بها نظرية دوامة الصمت (die schweigespirale) التي صاغتها عالمة الاجتماع الألمانية نيومان نوال Noëlle Neuman، في السنة 1974 لا يقدم في الحقيقة سوى توصيفا جاهزا لظاهرة تشكيل الرأي العام من خلال إجماع الأفراد في المجتمعات الغربية عن التعبير عن آرائهم خشية العزلة. بمعنى أن قيام وسائل الإعلام بإقصاء بعض الآراء من التداول والاكتفاء بإبراز المضامين الحاملة للآراء المهيمنة كفيل بتشكيل الرأي العام. بينما "إنثوغرافيا التلقي تؤكد على "نزاع" التأويلات للمحتويات الإعلامية حسب الجماعات والمجموعات التي تبني الدلالة الاجتماعية لما تتلقه من مضامين إعلامية عبر مراحل (Bouillier, 2003, p. 54). وهذا يعني أنه لا يوجد إجماع شامل وواسع على معنى موحد للمضامين الإعلامية والذي ينتج اصطفا في الرأي والموقف. ويمكن لهذه الانثوغرافيا أن تساعدنا، أيضا، على استجلاء دلالة الاستبانة لدى المبحوثين في المنطقة العربية التي تشترط نوع الإجابة. فالفرد الذي يعاني من ضيق حرية التعبير والتفكير ويخشى "بطش" السلطة سواء بمفهومها السياسي الضيق أو بمعناها الواسع الذي حدده ميشال فوكو في مجتمع

أصبح العنف وسيلة تعبيره المفضلة ليس أمامه سوى التظاهر بأنه يتبنى الأفكار السائدة أو يلتزم الصمت الذي يقبر رأيه الحقيقي. فليس أمام الرأي غير المجال والخراج عن الإجماع المصطنع في المجتمع الذي يقدر أحادية الرأي، ويجرم الاختلاف في الفكر، سوى الاختفاء.

لتوضيح فكرة هيمنة السلطة بالمعنى الفوكوي- نسبة إلى فوكو- نشير إلى أننا حاولنا مع طلبة الماجستير في الإعلام في كلية الاتصال بجامعة الشارقة أن ندرس تلقي المسلسلات التركية في منطقة الخليج عبر مقاربتين مختلفتين: المقاربة الأولى تتمثل في البحث عن هذه الظاهرة من خارجها، أي القيام بدراسة كمية التي تتطلب الاستعانة بالاستبانة، والمقاربة الثانية تتمثل في البحث عنها من داخلها؛ أي من خلال استخدام الملاحظة بالمشاركة، وقد كانت نتائج البحثين مختلفتين إلى درجة يعتقد البعض أننا قمنا بالبحث بالاعتماد على عينتين مختلفتين، ومن بيانات ثقافية مختلفة.

يؤكد المنافعون عن أهمية البحوث الكيفية أن الحياة الاجتماعية المعاصرة تزداد تعقداً، ولا يمكن فهمها وإدراكها بمجرد تكميمها. إنهم يعتقدون أن الشخص كائن اجتماعي مركب وشديد التعقد. فمثلاً يقول الأنثربولوجيون إن الغيرية لم تعد واحدة وفردية، فهناك "غيرية بعيدة"، بعد مجتمع عن آخر ثقافياً. وهناك "غيرية قريبة" داخل المجتمع الواحد. فشدة القرب في بعض الأحيان حجاب، كما يقول الصوفيون، وتسعى البحوث الكيفية إلى تمزيق هذا الحجاب. فمحاولة التكميم تقوم على جهد يروم رصد التواترات والتكرارات التي تفصح عن نية في الكشف عن الوضع السوي Normalité، أو محاولة فرض معيارية، بينما البحوث الكيفية لا تروم الكشف عن التكرار والتواتر، بل تبحث عن التنوع، ولا تسعى إلى استجلاء الوضع السوي، بل تطمح إلى فهم الوضع غير

السَّوِيَّةُ L'anormalité فبعض الجوانب مما يقوم به الفاعل الاجتماعي وتصرفاته لا تقبل القياس. والرغبة الملحة في قياس كل شيء وتكميمه قد تؤدي إلى نتائج متواضعة جداً لأن التفاصيل المنفردة والجزئيات الدالة قد تنفلت من قبضة التكميم دون أن تستثير الباحث. هذا إضافة إلى أن اقتناع هؤلاء المنافحين بأن الباحث مرتبط بواقعه، بهذا القدر أو ذاك، ولا يمكن أن يفصل ذاته ويقود بحثاً مستقلاً عن موقعه في العالم. فقيمه ومصالحة تُلَوَّن، بهذا القدر أو ذاك، بالطريقة التي يدرس بها الواقع ويناقشه (Massé & Vallé, 1992, p. 38). وهذا ما تؤكد به البحوث الانثوغرافية الاستعمارية. ومن هذا المنطلق تبدو عملية تحييد القيم في رؤية الأحداث أو الحكم عليها عملية صعبة إن لم تكن مستحيلة.

إن محاولة التحرر من الفهم الذي رسخته البحوث الكمية القياس يدفع إلى التساؤل: هل القياس يؤدي إلى نتائج كمية فقط (أرقام وإحصائيات)؟ ثم ألا تخضع البحوث الكيفية لأي شكل من أشكال القياس؟ هل يتوسل التحليل النوعي الألفاظ فقط؟ (Houle, 1984, p. 40) وهل الاختلاف بين التحليل الكمي والكيفي يكمن في التعارض المزعوم بين الحروف والأرقام؟

إن القياس الكمي أو النوعي ليس معطى منفصلاً بذاته ويوجد في فراغ، بل أنه جزء من تصور لموضوع البحث وإشكالياته، و يُبنى على تفكير متبلور؛ أي يجب أن نفكر قبل أن نقيس لا أن نقيس قبل أن نفكر (Bachelard, 1975, p. 214). فما يؤخذ على البحوث الكمية أنها تركز كثيراً على القياس، أما التحليل والتفكير فيأتي بعده. بينما البحوث الكيفية تركز، بدرجة أساسية، على التفكير ويأتي القياس كعملية مكملة ومعقدة له. فلا تركز على

الارتباطات الاحصائية، بل على الآليات الخفية وراء سلوك الفاعلين وتأويلاتهم له.)) AlimiDesjeux, Garabuau-Moussaoui, 2009, p. 90

ساهمت العُدّة التكنولوجية المتطورة، والانترنت ومنصات الرقمية في تطوير بحوث الميديا والاتصال سواء باعتبارها أداة لجمع البيانات والمعلومات أو لكونها موضوعا للبحث. وزادت من قدرات القياسي في البحوث الكمية التي أصبحت تعتمد اعتمادا شبه كلي على برامج الكمبيوتر فجعلت العديد من العلاقات الترابطية بين العديد من المتغيرات تتناسل، إلى حد أن بعضها لم يخطر على بال الباحث فأصبح المطلوب منه أن يتعمق أكثر في قراءة نتائج هذه العلاقات الترابطية. فأضحت العديد من المواقع الإخبارية ومواقع المؤسسات الإعلامية في شبكة الانترنت تعرف بدقة، وبشكل أني، عدد زوارها مع تحديد ملامحهم: جنسهم (ذكورا أو إناث)، الأوفياء منهم والذين يزورونها لأول مرة، والمدة الزمنية التي استغرقها كل فرد في زيارته لها، والصفحات التي اطلع عليها، وماذا حمل منها، والمنطقة الجغرافية التي يتصل منها، ومكان الاتصال (البيت أو العمل) وأداة الإبحار في شبكة الانترنت التي يستخدمها، ولغة الاستخدام، وترتيبها حسب عدد متابعتها أو متصفحها. كل هذا بفضل محركات البحث، مثل: Alexa.com، و Google Analytics، وغيرها، وهكذا أصبحت المواقع الالكترونية، والصحف الإلكترونية، ومحطات الإذاعة، والقنوات التلفزيونية التي تبث عبر شبكة الانترنت تملك نظرة عامة عن جمهورها، بل تتفاعل مع بعضه وتتجاوز معه. وبهذا تيسر على الباحثين جمع المعلومات. لقد رافع ريتشارد روجرز Richard Rogers (2010) عن تطوير طرق الملاحظة الدقيقة المخصصة في شبكة الانترنت وجمع البيانات الهائلة والتي اسمها " المناهج الرقمية MethodsDigital' التي رسختها ترسانة البرمجيات التي تسمح، في نظره، بدراسة شبكة الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي من

أجل فهم التطور المجتمعي والثقافة والإعلام في العالم الواقعي وليس الافتراضي فقط. لقد عززت هذه التكنولوجيا موقع البحوث الكمية في مجال علوم الإعلام والاتصال وجددت هاجسها القديم المتمثل في اقترابها من العلوم التطبيقية بعد تزايد اعتمادها على الفيزياء والرياضيات في إطار ما أصبح يعرف بعلوم الشبكات. ويمكن القول إن علوم الإعلام والاتصال أصبحت اليوم تملك رصيدا من البحوث التي اعتمدت على هذه المناهج للإجابة عن أسئلة بحثية جديدة تختلف عن تلك التي طرحتها وسائل الاتصال الجماهيري التي ظلت مهيمنة في حقل الإعلام لعدة قرون بغية الوصول إلى أهداف بحثية يصعب الوصول إليها عبر أدوات البحث التقليدية، نظرا لامتداد مجتمع البحث واتساعه، وحجم العينة الكبير – مئات الآلاف من المواقع في شبكة الانترنت وتحليل ملايين الرسائل والنصوص الرقمية. ومن الأسئلة المستجدة التي وجدت إجابتها عبر هذه البرامج يمكن أن نذكر، على سبيل المثال فقط وليس الحصر، ما يلي:

1- ما مدى تنوع الأخبار وامثالها في بيئة الواب؟ من يأخذ أخبار من: هل تأخذ وسائل الإعلام الكلاسيكية أخبارها من وسائط الاتصال الجديدة (مواقع الشبكات الاجتماعية، المدونات الإلكترونية، صحافة المواطن) أم أن هذه الأخيرة تستقي أخبارها من وسائل الإعلام الكلاسيكية؟<sup>1</sup> ربما مبرر هذه الأسئلة يكمن في معرفة مدى محدودية التشريعات الخاصة بمكافحة احتكار

<sup>1</sup> يمكن أن نذكر من باب التوضيح أن Carpenter قارن تيمات النسخ الإلكترونية للصحف الورقية الأمريكية في شبكة الانترنت بتييمات مواقع الصحف التساهمية الأمريكية والتي شملت عينة ضخمة من المواقع والتييمات قد يتعذر على الطرق اليدوية حصرها. أنظر:

Carpenter S (2010). « A study of content diversity in online citizen journalism and online newspaper articles », *New Media and Society*, 12 (7), pp. 1064-1084

وسائل الإعلام وتمركزها التي صدرت في عصر ما قبل الانترنت أو لأسباب اتصالية تتعلق بنشاط أقسام العلاقات العامة والإعلان.

2- من يمارس دور قائد الرأي في موقع شبكة تويتر وبقية المواقع الافتراضية؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تتطلب مسحاً رقمياً لعدد متابعي القائد المفترض في مواقع الشبكات الاجتماعية، ولعمليات إعادة نشر تغريداته، والتعليقات على ما يغرد به.

3- كيف تبنى أجندة الأخبار التي تضعها بعض مواقع الشبكات الاجتماعية.

وهل تستقى من من المصادر الشعبية crowdsourcing<sup>1</sup> وغيرها من الأسئلة التي تطرح ضمن إشكالية إدارة الأخبار والمعلومات، ورسم خرائط إنتشار الطنين Buz الذي يستغل في إطار الاتصال السياسي والتسويق.

4- كيف تتجسد أشكال التفاعل في المواقع الإخبارية في شبكة الانترنت، ومواقع الصحف والإذاعات والتلفزيون، والمدونات الإلكترونية، ومن يتفاعل مع ماذا؟<sup>2</sup>

<sup>1</sup> - أنظر على سبيل المثال:

Sitaram Asur, Bernardo A. Huberman, Gabor Szabo, Chunyan Wan( 2011 ): Trends in Social Media : Persistence and Decay retrieved mayo 30, 2016 from [www.hpl.hp.com/research/scl/papers/trends/trends\\_web.pdf](http://www.hpl.hp.com/research/scl/papers/trends/trends_web.pdf)

<sup>2</sup> - أنظر على سبيل المثال:

Jure Leskovec and Al : Meme-tracking and the Dynamics of the News Cycle, retrieved mayo 30, 2016 from <https://cs.stanford.edu/people/jure/pubs/quotes-kdd09.pdf>

5- ما هي مسالك الإبحار في مواقع الصحف في شبكة الانترنت؟ وهل الإخراج الفني للموقع يؤثر في توجيهها؟

ورغم أن هذه "الطرائق الرقمية" فتحت أفقا واسعا للبحث في الاتصال والميديا المتعدد الاختصاصات في سياق معرفي جديد يشارك فيه المختصون في الإحصاء والرياضيات، والمعلوماتية والاتصال وعلم الاجتماع، وجمعت البحث الكمي بالبحث الكيفي Cardon (، Cointet، 2014، Venturini) من أجل الوصول إلى معرفة أكثر دقة إلا أن النقد طالها. فالباحث (Rebillard 2011) يرى أن بعض ما أنتجته من بحث يعاني من سطحية مؤشرات، وعدم التعمق في التحليل. ويرجعه إلى نسقية الملاحظة على أوسع نطاق وأتمتها. إذ يعتقد أن القصور في إدراج البعد الاجتماعي لإنتاج المحتويات الإعلامية يمكن أن يؤدي إلى تفسيرات سطحية جدا.

لقد حاول بعض الباحثين، مثل (Rouquette 2009)، تجاوز هذه النقائص باقتراح برتوكولات أمبريقية متكاملة لدراستها، تتجاوز الأدوات البحثية الكلاسيكية، تقوم على مقاربات متعددة الاختصاصات، منها البرتوكول الخاص بتحليل المواقع الإلكترونية في شبكة الانترنت، والذي يشمل المستويات التالية: تحليل مستخدمي المواقع الإلكترونية، تحليل النص المتشعب أو الفائص analysehypertextuelle، وتحليل شبكة الروابط links بالموقع الإلكتروني، والتحليل السوسيو سيميائي للصفحات الأساسية للمواقع Home page والتحليل السوسولوجي للمحتويات. وقد كان حذرا في توظيف بعض أدوات التحليل الراسخة في علوم الإعلام والاتصال، مثل

تحليل المضمون. فمن أجل فهم تبعات التفاعل في المدونات الإلكترونية Blogs على محتواها وعلى نشاط المدونين رأى (2008) Rouquette أن تحليل مضمون التعليقات المنشورة في المدونة لا يقدم سوى نتائج جزئية عن هذا التفاعل لأن هذه التعليقات تخضع، في الغالب، للغلبة والتعديل، فتفقد جزءا كبيرا من ردود الفعل الأكثر مباشرة، والأكثر إحساسا وحميمية والتزاما؛ أي تلك التي من شأنها أن تحفز على التفاعل. ويقترح استكمالها بالمقابلات المعمقة، ويوصي بإجرائها عبر البريد الإلكتروني، أي في أماكن النشاط المدروس. ويرر هذا النوع من المقابلات بأنه الأقدر على استقاء المعلومات عن التجربة المعاشة الثرية والمركبة، والأقدر على التغلغل في نظام تمثلات الأشخاص، وتعيين نقاط قوتها وتشخيص نقاط تعارضها مع الخطاب المسبق والجاهز.

#### رابعا: بحوث الميديا؛ تغيّر السياقات المعرفية وتعدد المقاربات المنهجية.

لقد استفادت البحوث الكيفية في علوم الإتصال والميديا من الانثوغرافيا وطوعت عدتها البحثية بدءا من الملاحظة بالمشاركة في مواقع الشبكات الاجتماعية والمدونات الإلكترونية، إلى تشكيل المجموعات البؤرية أو المركز groupFocus عبر شبكة الانترنت ومنصات ومواقعها وإجراء المقابلات المعمقة مع مستخدمي مواقع الشبكات الاجتماعية في أثناء

استخدامهم لها أو خارج هذا الاستخدام تجسيدا لمفهوم "الوصف المكثف (thick description).<sup>1</sup> ووصولاً إلى تقنية "المواجهة الذاتية".<sup>2</sup>

إن تطور البحث في مجال الاتصال والميديا فند التناقض المزعوم بين الكم والكيف، وهذا ما نلاحظه بوضوح في مجال التحليل النوعي لمضامين وسائل الإعلام التقليدية المكتوبة والمسموعة والمرئية الذي أصبح يستعين بحملة من برامج الكمبيوتر.<sup>3</sup> بالطبع إن التكميم الذي تنتجه هذه البرامج لا يعد غاية في حد ذاته، بل ركيزة يعتمد عليها من أجل تعيين التيمات، وبناء الأفكار كما

<sup>1</sup> - صاغ الأنثروبولوجي كليفورد غيرتز Clifford Geertz هذا المفهوم في كتابه الموسوم " تأويل الثقافات (The Interpretation of cultures) والذي يعنى إعطاء سمك لوصف السلوك البشري وسياقه.

<sup>2</sup> - تتمثل هذه التقنية في تثبيت برنامج التقاط الشاشة في جهاز الكمبيوتر حيث يرصد المواقع، والصفحات، والمقالات، والصور التي تصفها مستخدم الانترنت، ثم يختار الباحث منها بعض المقاطع التي تم التقاطها وحولها تجرى المقابلة المعمقة مع المستخدم/ المبحوث. وذلك من أجل وصف وتحليل نمط ابحار المبحوث في شبكة الانترنت أو الموقع وهو يبحث عن الأخبار وانتقائها، وتسمح هذه التقنية بالجمع بين التحليل الأمبريقي لإجراءات الابحار في شبكة الانترنت أو الموقع وتأثير الإخراج على اختيار الأخبار وتمكن الباحث من فهم مسار إنتاج المعنى من الإخراج. وقد اعتمدت الكثير من البحوث على هذه التقنية، نذكر منها:

Julien FIGEAC:2004)(Repenser les approches sur la réception des informations à partir des usages de la presse en ligne; 17e Congrès international des sociologues de langue française ; Tours, France, du 6 au 8 juillet.

Amandine Degand ( 2012): Le journalisme face au web Reconfiguration des pratiques et des représentations professionnelles dans les rédactions belges francophones thèse de doctorat l'Université catholique de Louvain- Faculté des sciences économiques, sociales, politiques et de communication- (UCL)- 2012.

<sup>3</sup> - من البرامج المعجمية والتحليل الآلي للغة نذكر ما يلي: Atlas.ti – HyperResearch-

Jean-Marie Miron; Jean- ALCESTE ، MaxQDA— Nvivo أنظر على سبيل المثال: Jean-Marie Miron; Jean- ALCESTE ، MaxQDA— Nvivo La recherche qualitative assistée par ordinateur pour les :François Dragon budgets minceurs, est-ce possible? Revue ; Recherches qualitatives – Vol. 27(2), 2007, pp. 152-175

تتجلى في النصوص، وتوضيح العلاقة بين البيانات، أي أنها تؤسس لمسار يشمل لحظتين، مثلما أكد ذلك Tesch (نقلا عن Savoie-Zajc، 2000) اللحظة الأولى تفكيكية، أي تقتصر على استخراج البيانات وفصلها عن سياقها، واللحظة الثانية، تركيبية، وهي لحظة تنظيمها في وحدات، و تأويلها من خلال إعادة تسييقها. من ينظر إلى تطور العلوم سواء من منظور التراكم أو القطيعة يتأكد بأنها لم تتقدم بتطور أدوات البحث والقياس فقط، على أهميتها، بل تطورت بتطور الإشكاليات. فنظريات التلقي والاستخدامات فتحت أفقا واسعة لبحوث الإعلام والاتصال ما كانت تبلغها في ظل نظريات التأثير. فهذه الأخيرة دفعت بالبحث إلى التركيز على المضمون الإعلامي والثقافي والذي باستطاعته أن يؤثر على الجمهور أو يلبي رغباته. بينما اتجهت نظريات التلقي إلى التركيز على الجمهور، من أجل فهم كيف تستبطن الجماعات المشاهدة للتلفزيون المضامين التي تتلقها، وكيف تأولها انطلاقا من تجاربها الاجتماعية وخلفياتها الثقافية ومستوياتها التعليمية، والأهم من كل هذا كيف تدغمها في حياتها اليومية في إطار ما يسمى "بابتكار المعنى الاجتماعي". ومن رحم هذه النظريات تجددت الإشكاليات البحثية، منها تلك التي ترى أن المشاهدة التلفزيونية تعد فعلا جماعيا، فأدخلت مفهوم السياق الذي تتمفصل فيه "الديناميكية العائلية في علاقتها بالتكنولوجيا" (Morley, 1992). السياق الذي أدى، في تقديرنا، إلى محاولة فهم الأسرة والمجتمع والثقافة من بوابة الاتصال والإعلام. لقد تضمن هذا المفهوم تصورا مختلفا عن أطروحات المدرسة النقدية التي تسعى إلى تقديم فهم للإعلام انطلاقا من البني الاجتماعية والهيمنة الثقافية. ثم بدأت الإشكاليات تركز على الأفراد في ظل انفصال المحمول الثقافي والإعلامي عن الحامل التقني مما يمنح للاستهلاك الإعلامي والثقافي الاستقلالية في بيئة تسير نحو تشذر الجمهور، أي أن الاهتمام البحثي انتقل من السياق العائلي وديناميكيته إلى الفرد

وكفاءاته وما يمكن أن يجنده في تعامله مع وسائل الإعلام، وليس انطلاقاً من المحتوى الإعلامي المفروض عليه. وسمح هذا الانتقال بملاحظة كيف تحدث آليات انتقاء الأخبار والاهتمام بها، وتذكرها، والتي تعد جزءاً لا يتجزأ من مسار بناء المعنى. (Dolez, 2015). وقد تم تطويع عدة بحثية لهذا الغرض مثل منهج سرد التلقي المسترجع Méthodes des récits de réception (RRR) و منهج دراسة الإدراك المتلفظ المتزامن مع التلقي Méthode d'Etude des Cognitions verbalisées concomitantes En réception (ECER)<sup>1</sup>.

وفي ظل نظريات المنظومات الاتصالية Dispositifs communicationels والتفكير في تشكل عملية الاستخدام، تطورت مناهج التفاعلية التي تسعى إلى تجنب السقوط في الحتمية التقنية (اقتصار البحث على العدة التكنولوجية وتداعياتها انطلاقاً من خصائصها التقنية في ظل غياب الفاعل) والحتمية الاجتماعية (اقتصار البحث على الفاعل في ظل غياب الوسيلة) وتجلت هذه المناهج عبر مستويات التحليل الثلاثة التي اقترحها Charlier (2000)، وهي: التجربة (وتتمثل فيما يقوله المبحوث عما

<sup>1</sup> - يتمثل منهج RRR في تسجيل الأخبار والصور وعرضها في الجهاز ذاته التي شاهده فيها المبحوث وفي سياق المشاهدة ذاته ثم يطلب منه أن يتحدث عما يشعر به وهو يشاهد بكل حرية ودون أن يمارس أي رقابة على أقواله وتسجل المقابلة من أجل تحليلها من أجل معرفة المسار العاطفي والاجتماعي والإدراكي الذي يشكل فيه المشاهدون دلالات الأحداث التلفزيونية. أما منهج (ECER) فيتمثل في طلب المبحوث أن يشاهد شريط الأخبار بمفرده ويتحدث بصوت عال وبحرية عما يفكر به فيما يشاهد وعن كل ما يدور في ذهنه في أثناء المشاهدة، وتسجل هذه المقابلة بالفيديو متزامنة مع شريط الأخبار حتى نتعرف عن الصور واللفظيات التي أثارت رد الفعل أو الأفكار. للاطلاع أكثر على كيفية استخدام هذه المناهج يرجى الإطلاع على:

Didier Courbet, Marie-Pierre Fourquet- Courbet ( 2009) : Analyse de la réception des messages médiatiques Récits rétrospectifs et verbalisations concomitantes. Communication & langages, septembre,, pp.117-135.

يفعله)، والتصور (ما يقوله المبحوث عما يفكر به)، والتطبيق (ما يقوم به المبحوث عمليا).

إن الأداة الأساسية في تحليل هذه المستويات هو الملاحظة من جهة، والمقابلة التفسيرية<sup>1</sup> L'entretien d'explication وفق ما حددها فرمرش Vermersch. ولعل هذه المستويات الثلاث يمكن أن نقلل من الشك في الخطاب في منهجية العلوم الاجتماعية وفق ما ذهب إليه Charlier (2000) الذي يرى أنه إذا كان هذا الخطاب يشكل المسلك للوقوف على تمثيلات الأشخاص (آراءهم، تعليقاتهم، معتقداتهم، حججهم، وأحكامهم)، فمن غير المؤكد أن نخبرنا عن أفعالهم. وهذا ما أشرنا إليه أعلاه عن التناقض بين الأقوال والأفعال في الاستبانة.

إن الإسهاب في عرض المستساغات المنهجية للمبحوث الكيفية ولعدتها المتجددة لا يعني بتاتا تبرئتها من كل نقائص. فالذين مارسوا هذا النوع من البحوث يقرون أن بعضها لم يتمكن من التغلب العوائق التي أوجزها (Dumez 2012) في نقاط ثلاث. أولها أن هذه البحوث لا تملك أي معنى إلا إذا أظهرت غايات الفاعلين، وخطاباتهم، وأفعالهم، وتفاعلاتهم، من وجهة نظرهم، ومن وجهة نظر الباحث، فإذا كان البعض يهتم الباحث النوعي بأنه يأخذ حريته في تأويل نوايا الفاعلين وشهاداتهم حول ما يفعلونه، رغم وجود منظومة إجرائية لمعقولية هذا التأويل، فبعض الباحثين النوعيين ينمحن

<sup>1</sup> تشكل هذه المقابلة من جملة التقنيات التي تهدف إلى مساعدة المبحوث على التعبير ودعوته لابتعاد الكلمات التي تصف الطريقة التي انجز بها المهام. إنها ترمي إلى تلفظ العملية، كما قام بها لتنفيذ مهمة محددة بدقة. – أنظر

Vermersch Pierre : (2010) L'Entretien d'explication; édition ESF ; p24.

تماما في البحث ويكتفون بنقل ما ورد على لسان الفاعلين أو ما قاموا به من أفعال. ثانياً مكابدة "المخاطر الدائرية" أي أن الباحث لا ينظر سوى إلى ما تحفزه النظرية على النظر إليه.

ففي هذه الحالة تنتقل غاية البحث إلى حك النظرية على الحقائق الأمبريقية، وكأننا نسعى إلى تأكيد صحة النظرية واختزال العلاقة الناشئة في البحث إلى علاقة ثنائية بين النظرية والمعطيات الأمبريقية. بينما أصل العلاقة في البحوث النوعية تقوم بين العديد من النظريات والمعطيات الأمبريقية. ثالثاً: استبعاد البيانات الأمبريقية التي لا تتناغم مع الإطار النظري الذي يؤطر البحث. وقد رأى بيار بورديو في هذا الأمر إحدى المآزق الكبرى للعلوم الاجتماعية التي تميل إلى وضع قاعدة للسلوك الاجتماعي ثم تحاول تفسير الظواهر على أساسها مما يؤدي بالضرورة إلى اختزال الظواهر لتلائم هذه القاعدة (بورديو، 2002، ص 9).

ويمكن أن نضيف إلى هذه العوائق، في المنطقة العربية، استبعاد فكرة " النظرية المتجذرة" grounded ، Ancrée والمتضمنة في بناء الإطار

النظري في لحظة البحث الأمبريقي، وليس قبله أي في أثناء صياغة فرضيات البحث ومراجعة أدبياته.<sup>1</sup>

أخيرا، يمكن القول إن التفكير في المنهجية يكون عقيما إذا كان يروم المفاضلة بين مناهج البحث. فلا يمكن تقييم نوعية منهج دون النظر إلى التموّج الاستمولوجي للباحث، والذي وضحه أنفا، وتناغمه مع غايات البحث وإشكالياته وأهدافه. وإن كانت البحوث الراهنة في علوم الإعلام والاتصال تميل إلى مزاجية المقاربات الكمية والنوعية فإنها تسعى إلى مواكبة التفكير الفلسفي في البحث في العلوم الاجتماعية الذي يدعو إلى تطبيق الايمان المطلق بالموضوعية العلمية في البحث الاجتماعي التي تغفل الجوانب الذاتية ولا تهتم بدراسة المقاصد والغايات والقيم التي ترتبط بتصرفات الفاعلين وسلوكهم داخل المجتمع مما يسقطه في الحتمية الاجتماعية، وعدم الاقتصار، في الوقت ذاته، على المقاربة الذاتية التفهيمية التي تلغي البعد الخارجي في الظاهرة الاجتماعية، واختزلها فيما هو فردي (Ladrière, 1994, p. 11)

من هذا المنطلق سجلت بعض المآخذ على بعض المنجزات البحثية الرائدة التي أصبحت من كلاسكيات البحث الاجتماعي. فقد أخذ على كتاب بيار بورديو الموسوم "بؤس العالم" "La misère du monde" على سبيل المثال، أنه يقدم صورة لعلم الاجتماع كتخصص يستقي بياناته ومعلوماته على نمط المحادثة العادية، وشهادات أي شخص عن أي شيء، ويقدمها إلى

<sup>1</sup> يمكن الإشارة إلى أن الكتاب الموسوم "اكتشاف النظرية المتجذرة، إستراتيجيات للبحث الكيفي" The discovery of grounded theory. Strategies for qualitative research لمؤلفيه Barney Glaser و Anselm L. Strauss الذي صدر في الولايات المتحدة الأمريكية في 1967 يترجم لحد الساعة إلى اللغة العربية حسب علمنا، ولم يترجم إلى اللغة الفرنسية إلا في السنة 2010.

الجمهور العريض.(Charmillot و Dayer ، نقلا عن Groulx ، 1999)، ومن جهة أخرى أخذ على مارغريت ميد في مؤلفها الخاص عن مراهقات ساموا، وهي جزيرة في جنوب المحيط الهندي، الذي ألفته في 1928، أنها لم تنخرط، بالقدر الكافي، في المجتمع المدروس، ولم تنوع بياناتها واحتفظت بتلك التي تسائر أطروحتها فقط(Tcherkézoff، 1997).

## المراجع

- بوخنوفة عبد الوهاب (2004): (استطلاعات الرأي في الجزائر: مشكلة تقنيات أم مسألة حريات وذهنيات، المجلة الجزائرية للاتصال، عدد 18، جانفي- جوان).
- بورديو بيار (2002)، بعبارة أخرى، محاولات باتجاه سوسيولوجية انعكاسية، ترجمة أحمد حسان، القاهرة، ميرت للنشر والمعلومات.
- بوعزة الطيب (2008): المنهج وأوهام العقل، رؤية نقدية، الملحق الثقافي لصحيفة الخليج، 10 مايو
- حصة لوتاه (2005): إشكاليات مناهج البحوث العربية، صحيفة البيان الإماراتية، 9 أبريل
- لعباضي نصر الدين (2016): البحث العلمي في علوم الإعلام والاتصال في المنطقة العربية وغياب الأفق النظري- مجلة المستقبل العربي، بيروت، عدد 450، أوت ( ص 7-27)
- Andrews tom (2012): what is Social Constructionism? The grounded theory review, volume 11, Issue 1, university college cork.

- Asur Sitaram, Bernardo A. Huberman, Gabor Szabo, Chunyan Wang ( 2011 ) Trends in Social Media : Persistence and Decay retrieved mayo 30, 2016 from [www.hpl.hp.com/research/scl/papers/trends/trends\\_web.pdf](http://www.hpl.hp.com/research/scl/papers/trends/trends_web.pdf)
- Attallah Paul (1991): Théories de la communication; sens; sujets; savoirs; presse de l'université du Québec; Canada.
- Babier Jean Claude ( 1990 ): Initiation à la sociologie, éd.Erasme, France.
- Bachelard Gaston( 1975): La formation de l'esprit scientifique. Contribution à une psychanalyse de la connaissance objective, Paris, Librairie philosophique Vrin, France.
- Bouillier D,( 2003 ): La télévision telle qu'on la parle. Trois études ethnographiques, Paris, Éd. L'Harmattan.
- Bourdieu Pierre, Jean-Claude Chamboredon, Passeron Jean-Claude) 1983 ) : Le métier de sociologue, mouton, Paris.
- Bourdieu Pierre) 1973 ): L'opinion publique n'existe pas, Les temps modernes, Paris; N 318, janvier.
- Cardon Dominique, Jean-Philippe Cointet et Tommaso Venturini, ( 2014 ) « Méthodes digitales. Approches quali/quantitative des données numériques », *Réseaux*, n° 188.
- Carpenter S., 2010, « A study of content diversity in online citizen journalism and online newspaper articles », *New Media and Society*, 12 (7), pp. 1064-1084.
- Dolez Charlotte ( 2015 ) « Le sens de l'actu. Une analyse des interprétations de l'information à partir d'entretiens de couple », *Politiques de communication* (N° 4), p. 119-142.
- Dumez Herve ( 2011 :) Qu'est-ce que la recherche qualitative ?- *Le Libellio d'Aegis*, , 7 (4 - Hiver), pp.47-58.
- Franck Rebillard,) 2011 )« L'étude des médias est-elle soluble dans l'informatique et la physique ? À propos du recours aux *digital methods* dans l'analyse de l'information en ligne », *Questions de communication* n 20.
- Groulx, L.H. (1999). Le pluralisme en recherche qualitative : essai de typologie. *Revue suisse de sociologie*, 25(2), 317-339.

- Habermas, J. (1987). *Théorie de l'agir communicationnel*. Paris : Fayard.
- Houle G.( 1982 ): *La sociologie : une question de méthode*, Sociologie et sociétés, vol. 14, no1.
- Kalinowski Isabelle( 1997 ) « Hans-Robert Jauss et l'esthétique de la réception », *Revue germanique internationale* n 8.
- Ladière Jean (1994) : *La dynamique de la recherche en sciences sociales*. PUF
- Leskovec Jure and Al : *Meme-tracking and the Dynamics of the News Cycle* retrieved mayo 30, 2016. from <https://cs.stanford.edu/people/jure/pubs/quotes-kdd09.pdf>
- Lorraine Savoie-Zajc ( 2000 ): L'analyse de données qualitatives: pratiques traditionnelle et assistée par le logiciel NUD•IST- *Recherches qualitatives*, Vol. 21, , pp.99-123.
- Lubnau Anne ( 2015:) *Phénomène de récits de vie et communication intergénérationnelle : les sites institutionnels et non institutionnels des récits de vie intergénérationnels*. Thèse de doctorat en Sciences de l'information et de la communication. Université Michel de Montaigne - Bordeaux III
- Marta Anadón; François Guillemette: *La recherche qualitative est-elle nécessairement inductive?* *Revue Recherches qualitatives*— Hors Série 5 – 2000 pp. 26-37
- Massé Pierrette, Vallé Bernard ( 1992 ): *Méthodes de collecte et d'analyse de données en communication*, Canada, éd Presse de l'université de Québec ; Canada; p 37; 38
- Morley, D. (1992) *Television, Audiences and Cultural Studies*, London; Routledge.
- Maryvonne Charmillot, Caroline Dayer ( 2007): *Démarche compréhensive et méthodes qualitatives : clarifications épistémologiques*; Actes du colloque Billan et prospective de la recherche qualitatives; *Revue Recherches qualitatives* – Hors Série-Numero 3.

- Mucchielli Alex ( 2004 ) Le développement des méthodes qualitatives et l'approche constructiviste des phénomènes humains; Revue Recherches qualitatives – Hors-Série – Numéro 1- Actes du colloque Revue Recherches qualitatives et production de savoirs.
- Rogers R., 2010, « Internet Research: The Question of Method », *Journal of Information Technology and Politics*, 7 (2/3), pp. 241-260. Retrieved mayo 30, 2016 from: <http://www.digitalmethods.net/>.
- Rouquette Sébastien(2008) , « Les blogs « extimes » : analyse sociologique de l'interactivité des blogs », *tic&société* Vol. 2, n° 1.
- Rouquette Sébastien 2009) (*L'analyse des sites internet. Une radiographie du cybersp@ce*; Bruxelles, De Boeck, coll. Médias Recherches,
- Strauss, A. & Corbin, J. (2004). *Les fondements de la recherche qualitative techniques et procédures de développement de la théorie enracinée*; Fribourg: Academic Press Fribourg
- Tcherkézoff Serge, (1997 ) « Margaret Mead et la sexualité à Samoa », *Enquête* retrieved mayo 30, 2016 from: <http://enquete.revues.org/12>
- Van Manen, M. (1990). *Researching lived experience: human science for an action sensitive pedagogy*: London ON: Althouse press
- Zine Mohamed Chawki 2015: L'Universalité de la pensée herméneutique chez Gadamer, Retrieved; June, 10, 2016, from <http://philos.8m.com/gadampensherm.html>



المجلة الجزائرية للاتصال

المجلد 15 العدد 02 (2016)، ص ص 05 – 37

ISSN:1111-536X

EISSN:2676-1793